(من كتاب الحجِّ وروح العبادة فيه)

(١)

الحجُّ وروح العبادة فيه

تأليف

عادل بن عبد العزيز الجهني

جميع الحقوق محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدِّمة

الحمد لله، شرع لعباده مِنْ العبادات ما يزيد به إيمانهم وتسمو به أرواحهم، وتعلو درجاتهم، وتُقال عثراتهم، والصلاة والسلام على خير من حجَّ إلى بيت ربه الحرام، وطاف وسعى، ووقف في عرفات، وبات في مزدلفة، ورمى الجمرات، ونحر وحلق في خشوع وخضوع وسكينة وخشية، صلى الله وعلى آله الأطهار وصحبه الأخيار، وبعد.

فإنَّ الحجَّ إلى بيت الله الحرام عبادةٌ جليلةُ القدْر، رفيعةُ الشأن، عظيمةُ الأجر، وهو العبادة الوحيدة التي سُمّيت بها سورة في القرآن، وفُصِّلت فيه أحكامه ما لم تُفصَّلْ في غيره من العبادات، وفي هذا دلالة على عناية الله بهذا الركن، ومكانته الكبيرة عنده، يقول ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد ظهرت عناية الله تعالى بهذه العبادة العظيمة، إِذْ بسط تفاصيلها وأحوالها مع تغيير ما أدخله**

أهل الجاهلية فيها)[1].

وعباداتُ العبدِ لربه -ومنها عبادةُ الحجِّ- حقها أن تُؤدى على أكمل وجه، فلا تكون جوفاء، أوْ تُؤدَّى بلا روح، أو تُفعل بذهول وغفلة، فمن أدَّاها هكذا لم تُؤتِ أُكُلها، ولم ينتفع بها صاحبها النَّفعَ المرجوَّ منها، وقد تتحول عند الإنسان إلى عادة أو حركات مجرّدة، ظاهرها التعبّد، لكنها تفتقد لِلُبِّ العبادة (من الإخلاص لله، وحضور القلب فيها، والتلذّذ بها) بل ربما فُعلت على وجه التخلّص، وكأنّها إلقاءُ حملٍ عن الظهر.

ومن أدّى فرض الحجِّ سيسقط عنه فرضه ولا شك، مالم يأتِ بمبطلٍ له، لكنَّ مسألة الأجر والثواب قد دلَّت نصوص الشريعة على أنَّ مقدارها بحسب حضور القلب في العبادة، يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في شأن الصلاة: **"إنَّ الرَّجَل لينصَرِفُ وما كُتِبَ لَهُ إلاَّ عُشرُ صلاتِهِ، تُسعُها، ثُمنُها، سُبعُها، سُدسُها، خُمسُها، رُبعُها، ثُلثُها، نِصفُها"**[2].

---

(١) [التحرير والتنوير: ٢/ ٢٣١]

(٢) رواه أبو داود.

وهكـذا فإن الأجر يكـون في الحجِّ وغيره مـن العبادات على قدر حضور القلب فيه.

ولَمَّـا لم يلتفت بعض العُبَّادِ لهذا الشـأن ضعف أثر العبادات عليهـم، فتجد عنـد مَنْ يصلـي الغيبـة والنميمة، والتعـدِّي على حقوق الآخرين؛ لأنّها لـم تُؤَدَّ على الوجه الأمثل، وربما لا تَرى أَثَرًا عند بعض مَن أدَّى شعائر الحجّ، وإن كان السواد الأعظم إن شـاء الله قد انتفعوا بهذه العبادات، ولكن تَبقى طائفةٌ منهم تحتاج إلى مزيد عناية لإيقاع هذه العبادة على الوجهِ الأمثل حتى ينتفعوا بها الانتفاع الأكمل.

ولأنَّ الحـِّج يعتريه ما يعتريه من المشـقة، والذهول عند أدائه لكثرة الناس واشـتداد الزحام، كان لزامًا على من يُؤديه أن يُراعي هـذا الجانب المهـم، وتحقيق مقاصـده (من اسـتحضار جانب العبودية فيـه، وأدائه على أكمل وجه، والشـعور بروح العبادة في كل منسك من مناسكه)

وكذلك (تحقيق التقوى) فالحاجُّ يتجرّد من ملابسـه المعتادة ليلبـس ملابس الإحـرام، ويطوف ويسـعى، ويقـف في عرفات،

ويبيت في مزدلفة، ويرمي الجِمار، ويحلق أو يُقصِّر، ويذبح هديه، ويطوف في البيت للوداع متنقِّلاً بين هذه العبادات والمناسك، منقادًا لأمر ربه، وإن كان غابَ عنه شيءٌ من حِكم هذه العبادة، إلا أنَّه يعلم يَقينًا أنَّها مليئة بالحِكم التي تزيد في إيمانه بها وبمشروعيتها، ولذا ينبغي عليه أن يسعى لفهم مقاصدها فـ(فهم مقاصد العبادة وأسرارها وحِكمها يساعد بشكلٍ كبيرٍ في تعظيمها وحضور القلب عند القيام بها، وممَّا أضعف أثر الحج في نفوس بعض المسلمين هو الانشغال كثيرًا بالجانب الفقهي لأدائها -على أهميته- وعدم الانتباه والتدبُّر في الجانب المقاصدي لهذه الفريضة العظيمة)[1].

وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما الحجُّ فشأن آخر لا يدركه إلا الحنفاء الذين ضربوا في المحبة بسهم، وشأنه أَجَلُّ من أن تحيط به العبارة، وهو خاصَّةُ هذا الدين الحنيف، حتى قيل في قوله تعالى: (حنفاء لله). أي: حُجَّاجًا)[2].

(١) [مقاصد الحج في ضوء القرآن الكريم:محمد الخولي]

(٢) [مفتاح دار السعادة:٨٦٩/ ٢]

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي: (أفعالُ الحج وأقوالُه كلها أسرار وحكم المقصود منها القيام بالعبودية المتنوعة، والإخلاص للمعبود؛ فالحجُّ مبناه على الحبِّ والإخلاص، والتوحيد، والثناء، والذكر للحميد المجيد، فإنما شرعت المناسك لإقامة ذكر الله)[1].

والغاية من العبادات كلها صلاح النفس، وتحقيق التقوى، وحصول الخشية، وسبيل هذه الغايات النفيسة (الإخلاص فيها، وإتقان العبادة، وإيقاعها على أحسن وجه).

ولو أنَّ الحاجَّ أدّى مناسك الحجِّ على أكمل وجه، لعاد بقلبٍ غير القلب الذي خرج به، ولرجع من حجِّهِ راغبًا في الخير، نافرًا من الشَّرِّ لأَنَّهُ قد ذاق حلاوة الطاعة، ووجد لذة العبادات، وأنست روحه بمناجاة ربه، ولذا لَمَّا سُئل الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن علامة قبول الحجِّ، قال: (أن يكون أزهد في الدنيا، أرغب في الآخرة)

(١) [مجموع الفوائد واقتناص الأوابد:٢٦٥]

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾[1] إشارة واضحة إلى أن يسعى العبد لإخلاص القصد لله، وإتمام هذه العبادة على أكمل وجه أمكنه، ومن أعظم أسباب ذلك: التفقّه فيها، ومعرفة شروطها وأركانها وواجباتها، والحرص على تحقيق كل ذلك، وليس هذا فحسب، بل البحث عن السُنن، ومواقف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما فعله في هذه العبادة العظيمة، وتَتَبُّع خطواته خطوة خطوة، لتقع عبادته على ما أتى به أعلمُ الناس بربه، والحرص على أن يكون الحج على السُّنَّة، وكم سيجد العبد من الراحة والطمأنينة والخشوع إذا هو تصوَّرَ رسولَ الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أمامه في كل موقف يقفه، وفي كل خطوة يخطوها، فيسير حيث سار، ويقف حيث وقف، ويسرع حيث أسرع، ويتمهَّل كما تمهَّل، ويرفع يده حيث رفعها، ويستلم ما استلمه، ويدع ما تركه، ويشير حيث أشار، وهكذا.. في اتِّباعٍ كامل، ولك أن تتصوَّر حضور قلب من سلك هذا النهج في عبادة الحجِّ.

(١) [سورة البقرة: آية ١٩٦]

إِنَّ خـروج الحاجِّ من بلده قاصدًا البيـت الحرام لأداء فريضة الحـج من دلائـل إيمانه إن شـاء الله، فهو يخرج مـن بيته ومكان إقامته ومحل راحته، تاركًا وطنه وولده، وصارفًا ماله، ومحتسـبًا مـا يلقـاه من تعـب ونصـب، يفعل ذلـك مسـتجيبًا لربـه، مبتغيًا مرضاتـه، طامعًا في الثـواب، فينبغي عليه احتسـاب ذلك عند الله عنـد الخروج من بلده، مسـتصحبًا ذلك طوال حجـه، وحريٌّ به وقد وُفِّقَ له، وتيسَّـرت له سـبله، واستوى على دابته أن يُفَرِّغَ جُلَّ وقتـه للعبادة، فالحـجُّ فُرصةٌ للتزوُّد منها، قـال الجريري: (أحرم أنسُ بن مالك من ذات عرق قال: فما سمعناه مُتكلِّمًا إلا بذكر الله حتى حَلَّ، وقال: يا ابن أخي، هكذا الإحرام)

وقال خلاَّد بن عبدالرحمن: (سألت سعيد بن جبير: أي الحاجِّ أفضل؟ قال: من أطعم الطعام، وكفَّ لسـانه. قال الثوري: سمعنا أَنَّهُ من بِرِّ الحج)

قال ابـن قدامة: (ويُسـتَحَبُّ له قلَّة الكلام إلا فيمـا ينفع، فإنَّ من كثر كلامه كثُر سَـقَطُهُ، وفي حال الإحرام أشـدُّ استحبابًا، لأنّه حـال عبادة واستشـعار بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ فيُشـبه الاعتـكاف، وقد

احتج أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على ذلك بأنَّ شريحًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ "كان إذا أحرم كأنَّهُ حَيَّةٌ صَمَّاءُ"، فيستحب للمحرم أن يشتغل بالتلبية وذكر الله تعالى، أو قراءة القرآن، أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر، أو تعليم لجاهل، أو يأمر بحاجته، أو يسكت، وإن تكلم بما لا مأثم فيه، أو أنشد شِعرًا لا يَقبح، فهو مباح ولا يُكثر).

لقد اعتنى الصالحون في الحجِّ بالعبادات بسائر أنواعها، وصرفوا جُلَّ وقتهم فيه لها، فهم قد أيقنوا أنَّهم في زمن شريف، ومكان مبارك، ومتلَبسين بعبادة عظيمة، فاجتمع لهم (شرف الزمان، والمكان، والحال) وبه تُضاعفُ الحسنات، فاغتنموا ذلك أحسن اغتنام.

فلذا كان شأنُ الحاجِّ الموفَّقِ أنَّهُ لا يُضيِّعُ من حجِّهِ وَقتًا في غيرِ طاعة أو قُربة، خصوصًا أَنَّ السَّوادَ الأَعظم منهم قد لا يَحُجُّ إلا حَجَّةً واحدةً نَظرًا لكثرة الحُجَّاجِ في هذه الأزمنة، ووجوبه في أصل الشرع مرة في العُمر.

والحجُّ أَيَّامٌ معدودات، ولو حسبه الحاجُّ لوجده ساعاتٍ سُرعانَ ما تنقضي، وأغلب الحُجَّاجِ اليوم في راحة، وشِبهِ تَفَرُّغٍ

للعبـادة، فالموفَّـق منهـم مـن انشـغل بالطاعـات، واغتنـم هذه الفرصـة لإصلاح قلبه وحالـه، وجعل الحجَّ مُنطَلَقًـا للعودة إلى الله إن كان بعيدًا عن ربه، ومُوَفِّيًا حَقَّهُ إنْ كان مُقَصِّرًا فيه، وَسَـبيلًا لزيادة الإيمان، وحُـبِّ الطاعات والإقبال عليها، مع العزم والنية الصادقة أن يجعل بقية عمره لله وفي سبيل مرضاته.

ولقد سَعَيتُ في هذا الكِتابِ أَن أُظهِرَ شيئًا من حِكَم العبادات، إذْ لا يُمكِـن لأَحَـدٍ الإحاطة بها، وسَـعَيتُ أن يَعِيـشَ الحاجُّ وهو يقرأ ما كُتب مع كل مَنسَكٍ مِن مناسكه عيشة التعبّد لله، إذ الهدف الأعظـم هو أن يُـؤدي الحـاجُّ حجَّه بقلـب حاضر، مسـتحضرًا مقاصده، وروح العبادة فيه؛ لينتفع منه وبه الانتفاع الأعظم.

﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾[1].

***

(١) [سورة هود: آية ٨٨]